



أسباب الشقاء عند الكندي وعلاجاته

الطالب الباحث: هشام حمداني
المغرب

ملخص:

إن العين المتأملّة والمتفحصة للتراث العربي الإسلامي لتسرّ مما تجد، من نفائس وبدائع ما أنتج فلاسفته الأفذاذ أصالة وعمقا وفرداً في طرحهم ومعالجتهم لقضايا إنسانية وفلسفية أزلّت الإنسانية، ومن أهمها قضية الحزن وكيفية دفعه عن النفس. ومن أهم من ألف في هذه الموضوعة فيلسوف العرب أبو يعقوب إسحق الكندي في رسائله الفلسفية عامة، وفي رسالة خاصة عنونها بـ "الحيلة لدفع الأحزان" ويعد من أوائل من طرح رؤية متكاملة للتعامل مع مشاعر الحزن والأسى من خلال توظيف العقل والتفكير الفلسفي فقدّم حيلاً و تدابير عدّة لمواجهة ودفع الحزن الذي يطبع حياتنا ويرافقنا في أوقات كثيرة، ولا يعزى منه أحد لعموم أسبابه كل الناس، واقفاً عند ماهيته وشارحا أسبابه ومفصلاً كيفية تدبيره ومقدّماً طرّحا فريداً لمسألة تدبير الحزن معرّفاً إياه بكونه: الألم الناتج عن فقد المحبوبات أو فوت المطلوبات، ومقدّماً ثلّة من الأسباب التي تكون عادة بواعث على بث الهمّ في نفس الإنسان وتصيير وجوده بئيساً في هذا العالم، وفي الآن عينه يقدّم الكندي مجموعة قيمة من الوصايا والحيل الأخلاقية والعقلية التي تكفل لكل من اعتنقها الانتشال من براثن الهموم وتولّج سماء الصفاء والسرور والابتهاج، رابطاً الحزن بعدّة أسباب لعل أهمها: خوف الموت الذي يرجعه إلى الجهل ثم الخلط بين ما يجب أن نحزن عليه وما لا يحق لنا الاعتماد بسببه، مثل فقد القنّيات المادية التي هي رأس الداء وسبب الشقاء، مقدّماً مجموعة من الحيل والتوجيهات السائقة نحو البهجة وعلى رأسها السلوى بما فات من مصائب الدّات والآخر، ثم تغيير النظر إلى الموت وعلاقة النفس بالبدن الذي يعيق النفس عن التّرقّي لاستكمال ذاتها والتّرقّي إلى عالم الحق والعقل فتسعد وتبتهج وتلتذّ اللذة العظمى والسرور الأكبر.

الكلمات المفتاحية: الشقاء، الحزن، الألم، البدن، النفس، السرور، القنية، الحياة، الموت...



مقدمة:

يكابد الإنسان الألم، ويرافق الحزن والأسى حياة الكائن العاقل، في كل أطوارها؛ لأنه لا يعرى من أسباب الحزن والغم أحد يحيا في هذا العالم، وقد تناول موضوع الحزن فلاسفة ومفكرون على مرّ التاريخ أدلوا بخلاصات ما توصّلوا إليه، وكان للتراث العربي الإسلامي قول في الموضوع على ألسنة العديد من رموزه، ولعلّ من أشهر من تناول الموضوع بالدراسة والتحليل فيلسوف العرب أبا يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي في رسائله الفلسفية، كما في رسالته اللطيفة، القصيرة العبارة البعيدة الإشارة، الموسومة بعنوان "في الحيلة لدفع الأحزان" والتي يقدم فيها نظريته لمفهوم الحزن متعرّضا لأسبابه، مقدّما جملة من الحيل والوصايا العقلية والأخلاقية التي يراها بدفع الحزن عن كل من يتحلّى بها مؤسّسا حيله على نظريته في النفس والموت والإنسان والسعادة، فالإنسان بدن ونفس، وهاته الأخيرة جوهر شريف روحاني غير دائر، بخلاف البدن وبالتالي أولويتها وأحقيتها بالعناية والعلاج والتطهير، وإذ يربط الشقاء والحزن الإنساني بالجهل بحال وحقيقة كل من الحياة والموت نافيا عن هذا الأخير أن يكون شرّا أو رديفاً ومقدّما براهين على ذلك، كما يرى أن من الأسباب الرئيسة للحزن التمسك والإكثار من القنّيات الحسيّة التي تشقي اللاهث وراءها، سواء محاولا الحصول عليها أو استبقائها والحفاظ عليها؛ لأنها سبب الآلام والشقاء الإنساني، بالإضافة إلى حيل عقلية فلسفية قيمة بدفع الحزن وجلب السرور والبهجة على الحياة الإنسانية فما أبرّز ملامح حيل الكندي في دفع الحزن وجلب السرور؟ وإلى أي حد توفّق في معالجة المشكلة الإنسانية؟

راهنية الموضوع:

قمين بدراس تراث الكندي التنبيه إلى راهنية الموضوع، مما يسوّغ البحث فيه ودراسته، فالكندي ما كان أبدا عائشا في برج عاجي متعاليا عن هموم الواقع وانشغالات الإنسانية الأبدية، والتي لعلّ أهمها مسألة لذّة العيش وبهجته، ودفع المنغصات ومكدرات الحياة من آلام وأسقام وأحزان، حتى يعيش الإنسان في بهجة ومتعة؛ إذ ما أكثر الشرور والآلام التي تصيب الإنسان فتنعّص عليه عيشه، وتكدّر حياته فتجعل وجوده بئيسا مؤلما ومما يجعل دراسة الرسالة مسألة راهنة:

مناسبة الموضوع للمرحلة التي نعيشها في عالمنا المعاصر

- ☐ انتشار القلق والحزن والبؤس النفسي في هذا العصر بشكل كبير وإحصائيات الأزمات النفسية والانتحار جد مقلقة في كل العالم.
- ☐ استفحال الشر الأنطولوجي وأزمة القيم في ظل انتشار العنف والحروب
- ☐ سعي الإنسان الدائب إلى سعادة ولذّة وبهجة الحياة؛ باعتبارها من أهم غايات الحياة يحتم عليه محاولات مستمرة لتخليص الحياة مما يشوبها ويذهب بهجتها
- ☐ كل ضرر وألم وعطب غير معروف الأسباب هو ألم غير مرجو العلاج والشفاء لذا كان لا بدّ من دراسة المشكلة.
- ☐ الوقوف على مدى إمكان تطبيق حلول الكندي في زمننا هذا إذ المشكلة التي يعالجها أبدية مصاحبة للإنسان أتّى وأينما كان فكيف ستكون قابيلة لحلوله للتطبيق.

تناول الكندي الحزن والشقاء والألم في رسائله عرضا، وتناولها بل وأفرد لها مؤلفا خاصا لطيفا فتدارسها غرضا بالقصد الأول، موقف الكندي من الحزن على موقفه من النفس وعلى خلاصة نظريته الأخلاقية في النفس والسعادة كأقصى غايات الإنسان التي يحق أن يطمح إليها ويسعى لتحقيقها. يدلي الكندي في الرسائل الفلسفية بدلوه في معالجة المشكلة التي أرقت الإنسانية منذ وجودها الأول،



وهذا حال الفيلسوف الحقيقي الذي يشارك في دراسة مشكلات الإنسان ويقدم خلاصة ما توصل إليه ثاقب فكره بالتأمل والنظر والاجتهاد، يبين فيها أموراً عدة من قبيل: ما الحزن؟ وما هي أسبابه؟ وكيف السبيل إلى التخفيف والتخلص منه؟ أي كطبيب يقدم للمرضى وصفات قابلة للتطبيق للتخفيف من ألم الحزن أو إزالته فتكون تلك الأشفية يسيرة الاستعمال قابلة للتطبيق لكل طالب مكابد.

تطرق الكندي إلى موضوع الحزن في رسائله الفلسفية، وأفرد لها رسالة خاصة لطيفة بعنوان "في الحيلة لدفع الأحزان"، ولعل أول يطالعنا منذ بدء الرسالة هو عنوانها اللطيف الذي استهله المؤلف بكلمة "الحيلة" مما يوحي بأن الأحزان حتى تدفع ويتمكن الإنسان صرفها وإقصائها عن نفسه، فإنه لا محالة يحتاج إلى مهارة وذكاء وحذق، وهو أمر ليس بمكنة الجميع النجاح فيه؛ إذًا فالتعامل مع الحزن ومعرفة كيفية تدبيره وصرفه أو التقليل منه أمر كسبي، يحتاج إلى جهد من الإنسان واجتهاد وليس معطى مهدى، فالتعامل مع الحزن يتطلب إرادة ووعياً وبذل المجهود والمواصلة حتى ينال المقصود، ويجتنب الألم والشقاء. أما كلمة "دفع" فتفيد التنحية والإبعاد والإبطال، فالكندي في هاته الرسالة يسعى إلى تحديد مفهوم الحزن، وخطأ أقاويل وتقديم وصفات علاجية تخلص من برائته وتجنب الإنسان الوقوع ضحية له.

مفهوم الحزن عند فيلسوف العرب:

يعرف الكندي الحزن قائلاً: "إنَّ الحزن ألم نفساني يعرض لفقد المحبوبات وفوت المطلوبات"¹. ويبدو من خلال التعريف السابق أن الحزن ألم مختص بالنفس وهو ناتج إما عن فقدان المحبوبات التي نملكها ونتمتع بوجودها، وإما متسبب عن فوت المطلوبات التي يحبها الإنسان ويسعى للوصول إليها. والحزن بهذا يعم كل أزمنة حياة الإنسان فهو يستغرق الماضي وكذا الحاضر باعتبار أن فقد المحبوبات من أشياء وأشخاص أعزاء أحبباء، ينتهي بالتحسر والأسى والندامة وبلغ الألم جزاء الفقد، كما يعم المستقبل بكون "فوت المطلوبات" وهي الأماني والغايات والأشياء التي يسعى الإنسان لتحقيقها والوصول إليها فإما أن تكمل مجهوداته بالفلاح فيسعد بذلك، وإما أن تخيب آماله ومساغيه فينهك ويتألم لفوات مطلوباته، ويبين الكندي أي المطلوبات تستحق أن يحزن ويتألم الإنسان إذا ما فاته نيلها، وأنها لا يستحق أن يلتفت إليه أو يهتم به وتوضع كمطلوبات يتحسر على فواتها في قوله: "فقل للبكاين، ممن طبعه أن يبكي من الأشياء المحزنة: ينبغي أن يبكي ويكثر البكاء على من يهمل نفسه، وينهكها ويهلكها من ارتكاب الشهوات الحسيسة الدنية المموهة التي تكسبه الشره، وتميل بطبعه إلى طبع البهائم ويدع أن يتشاغل بالنظر في هذا الامر الشريف والتخلص إليه ويظهر نفسه حسب طاقته؛ فان الطهر الحق هو طهر النفس لا طهر البدن؛ فإن العالم الحكيم المبرز المتعبد لباريه، إذا كان ملطخ البدن بأكمامة، فهو عند جميع الجهال، فضلاً عن العلماء، أفضل وأشرف من الجاهل الملطخ البدن بالمسك والعنبر؛ ومن فضيلة المتعبد لله، الذي هجر الدنيا ولذاتها الدنية، أن الجهال كلهم، إلا من سخر منهم بنفسه، يعترف بفضله، ويجله، ويفرح أن يطلع منه على الخطأ"². في هذا النص يبين فيلسوف العرب أن ما يجب أن يحزن ويتألم الإنسان لفقدته وفوته حقاً إنما هو المطالب الشريفة العالية من الأمور العقلية التي تخص جانب النفس الناطقة التي بها كان الإنسان إنساناً، أما الشهوات الحسية المادية، فلا تستأهل أن يحزن على فواتها ولا يفرح بتحقيقها لأنها خسيسة هابطة دنية، حائلة بين الإنسان وبين وصوله إلى الحياة العقلية وموانعة من تجلي الحقائق العالية، وهابطة به إلى مستوى الحيوانات من الكلاب والخنازير وذلك لارتباط هذه الشهوات والأشياء الحسية بجانب الإنسان الحسي الجسدي، وهو الجانب الدائر الفاني، بينما يتوجب على الإنسان الحصيف الحكيم أن يولي بالغ عنايته ويوجه نفسه صوب ما يحقق ويكمل جوانبه العقلية والروحية، المرتبطة بجانب النفس الذي به صار الإنسان إنساناً؛ إذ النفس في نظر الكندي أشرف وأبقى وأولى بالاعتناء والاهتمام من البدن يقول: "إن النفس بسيطة ذات شرف وكمال، عظيم الشأن؛ جوهرها من جوهر الباري عز وجل، كقياس ضياء الشمس من الشمس"³. فالنفس أسمى وأبقى وأجدر بالحزن على فوت مطلوباتها من البدن فهي باقية تنتمي إلى عالم العقل والديمومة، منفردة عن هذا الجسم مختلفة عنه ذات شرف ونبل وطهر جوهرها من جوهر الباري.

الحزن أعدل الأشياء قسمة بين الناس:



يمكن أن يكون الحزن حادًا ومؤقتًا، كما يمكن أن يكون مزمنًا ومستمرًا، كنوع من الاستجابة الإنسانية الطبيعية لفقدان عزيز، أو فوت تحقيق هدف، إنه تجربة مؤلمة وجدّ قاسية، تختلف الاستجابات لها وكيفيات التعامل معها من فرد لآخر. غير أن المشترك والمتفق عليه أن الحزن والألم ظاهرة نفسية إنسانية لا يفلت منها أحد أو يخرج من تحت مظلتها، مادامت أسباب الحزن عند - فيلسوف العرب - هي إما: فقد المحبوبات، أو فوت المطلوبات فلا أحد يمكن أن يطمئن على عدم فقد محبوباته خصوصًا أمام الفناء والموت الذي يتهدّد الأحباء والأعزاء كل لحظة، كما لا أحد يتمكن من تحقيق كل أهدافه وطموحاته في حياته إذ فوات الأهداف، والفشل في الوصول إلى بعض ما يروم الإنسان تحقيقه، ملازمة للإنسان منذ وجوده ومستمرّة معه لاشك، ولهذا يقرّر الكندي ويؤكد أن الحزن والألم عام للإنسان وذلك لعموم أسبابه فيقول: "إذن قد تبينّت أيضًا أسباب الحزن مما قد قيل: إذ هو عارض لفقد محبوب، أو فوت مطلوب. فإذا قد ينبغي أن نبحث هل يمكن أن يعرّى من هذه الأسباب أحد. فإنه ليس يمكن أن ينال أحد جميع مطلوباته؛ ولا يسلم من فقد جميع محبوباته"⁴. من هنا لن ساع لنا أن نعرّف الإنسان فيمكننا أن نعرّفه بأنّه الكائن الحزين المتألم/ ما دام الحزن من خصائصه فهو رديفه في الحياة ومرافقه في كل تقلّباتها، وكون المحبوبات والمطلوبات -الحسّية- عرضة للفقد والفوت مبني على قاعدة الثبات والدوام والتغير والفناء؛ ففي عالم الكون والفساد الحسي لا ثبات ولا بقاء للأشياء والفنيات المادية، فهي دائرة مستحيلة متنقّلة متنازع فيها وعليها، وهي طلبة لكلّ طالب، وعرضة لكلّ ناهب وغاصب.

أسباب الشقاء عند الكندي وأشفيته:

من صيدلية الكندي العامة نستخرج بعضًا من الأشفية الناجعة لمواجهة وقهر الألم والحزن، ولعل من أشفية الحزن ومذهبات الألم والتعاسة حسبما يرى أول الغيث في الفلسفة العربية:

أولاً: الاستعاضة عن المطالب الحسية بأخرى عقلية عالية وأن يستبدل الإنسان المطلوبات الحسية بمغروبات عقلية، فالمحوبات المادية تنتمي إلى عالم الحس والمادة الموسوم بالتغير والفناء والمحكوم بالاندثار والزوال، أمّا المطالب العالية الشريفة التي تنتمي إلى عالم العقل الشريف لا تنالها الآفات ولا يصيبها الممات؛ إذ تنتمي إلى عالم الديمومة والبقاء، عالم الطهر والصفاء يقول: "فإن أحببنا لا نفقد محبوباتنا، ولا تفوتنا طلباتنا فينبغي أن نشاهد العالم العقليّ، ونصير محبوباتنا وقنياتنا وإرادتنا منه فإنّا إن فعلنا ذلك أمنا أن قنياتنا أحد أو يملكها علينا أحد..."⁵

ثانياً: يحيا الإنسان في هذا العالم وهو ولا شكّ بحاجة إلى المادّيات والحسيّات التي بها قوام عيشه ودوام بقائه. ويرشد الكندي الإنسان الحصيف أن يحرص على أن تكون مطلوباته من القنيات الحسّية على قدر الحاجة إليها ليدفع بها الألم ويحقّق الرّاحة، وألا يجاوز القدر المطلوب حتى لا يقع في الشرّ والتّهم المورث أسفا وحزنا إما على عدم التمكن من الاستكثار منها أو على فوتها. كما يحسن بالعقل أن لا يأسى ولا يحزن على فوات القنيات الحسّية إذا فاتت بعدما أخذ منها بنصيب وقضى منها وطره وبلغ أربه؛ إذ من المحتم أن تنقضي وتتصرّم، فتمتّ دوام الزّائلات من موجبات الحزن والألم، والحسرة على ما مضى وانقضى وهذا سبب أكثر أنواع الاكتئاب والحزن لدى النّاس، فما قد فات فات ولا يمكن لأحد إعادة نشارة الخشب خشبا يقول الكندي: "فينبغي أن نحرص على أن نكون سعداء، وأن نحترس من أن نكون أشقياء: بأن تكون إرادتنا ومحبوباتنا ما تهياً لنا، ولا نأسى على فائتة ولا نتطلّب غير المتهيّء من المحسوسة؛ بل نكون إذا شاهدنا الأشياء التي يتمتع بها النّاس من المحبوبات في العقل -أعني قدر ما بالتّمسك إليه الحاجة في تثبيت صورتها أيام مدّتها المقسومة لها وإثمار فعلها، وما دفع عنها الألم وأفادها الرّاحة - تناولناه بالأمر الأجمل بقدر الحاجة، ولم نتلقها مماسّتنا إيّاها ومشاهدتها -بتمنّ؛ ولم نتبع أنفسنا بعد انصرافها عنّا تأسفا ولا إشغال فكر".⁶

ثالثاً: صقل النفس وتربيتها وتعويدها، إذ يرشد الفيلسوف إلى تربية النفس بالعادة الجميلة على عدم الحزن على الفاتتات، ورياضتها وتعويدها على الرضى بكل حال وتقبّل الأمور في تقلّباتها مما تأتي به الليالي والأيام ما دمنا في عالم التّغير والزّوال في عالمنا هذا،



يدرّب الإنسان نفسه ويحملها على الرضى والتجاوب الإيجابي مع الحزن حتى يصير هذا الأمر طبعاً لازماً لها ليكون الإنسان فرحاً مسروراً، وهذا الأمر يبيّن ظاهر من تجارب الإنسان في مسيرة حياته يقول: «فينبغي ألا نحزن على الفاتئات ولا فقد المحبوبات، وأن نجعل أنفسنا بالعادة الجميلة، راضية بكل حال، لنكون مسرورين أبداً»⁷. ويقدم الكندي أمثلة من صميم الواقع المعيش لأناس تعودوا على تقبّل الأمور كما هي والتعود على عدم الحزن من قبيل المولع بالقمار رغم ما فيه من تضییع الجهد والمال إلا أنه فرح بهج مسرور بالأمر بسبب الاعتياد والإلف، وأيضاً المتنعم بصنوف المتع واللذائذ الحسية يرى نفسه في بهجة وسرور ويرى من خالفه في نصب ومصائب وشقاء، وما هذا إلا بفعل العادة والتكرار التي تترسخ وتصير طبعاً إما يحمل معه السرور أو يجلب في طياته الشقاء فالأمر إلى الإنسان وما يختار، ما دامت المرغوبات والمرهوبات الحسية ليست أمورا لازمة بالطّبع، بل هي مكتسبة بالعادة حتى تصير طبعاً مستحكما وخلقا راسخا، وهنا للإرادة دور كبير في تعويد النفس وتدريبها حتى تصقل يقول الكندي: "فيتبين إذن أنّ المكروه الحسي ليس شيئا في الطّبع لازما، بل بالعادات وكثرة الاستعمال" وهذا من بعض جوانب الفكر التربوي عند الكندي الذي يشير إلى أهمية التدريب والعادة في عمليتي التخليّة والتحلية. لذا يتوجّب تحمّل المشاقّ والصّعاب من أجل إلزام النفس بالعادة المحمودة في الأمور السهلة البسيطة ثم التّرقّي إلى ما هو فوقها فإذا اعتادت يرقى إلى ما هو فوقه حتى تتشبع النفس بالخير وتتطّبع بالمحمود من الخصال وتتخلّى عن سفاسف الأمور؛ إذ الاعتناء بإصلاح أمر النفس مقدّم على إصلاح البدن لما بينهما من فروق ولاختلاف عالم كل منهما في هذا: "إذ النفس سائس والبدن مسوس. والنفس باقية والبدن دائر، ومصلحة الباقي والعناية بتقويمه وتعديله أصلح وأقوم من إصلاح وتعديل الدائر لا محالة الفاسد بالطّبع-فإصلاح النفس وإشفاؤها من أسقامها أوجب شديدا علينا من إصلاح أجسامنا: فإننا بأنفسنا نحن ما نحن، لا بأجسامنا، لأن الجسم مشترك لكل ذي جسم..... فإصلاح ذواتنا أولى بنا شديدا من إصلاح آلتنا".⁸

رابعا: تجزيء وتقسيم أسباب الحزن من المصائب المؤلمات فهو مفيد نافع لمعرفة أسباب الأمور المحزنة المشقية؛ إذ هاته المعرفة أوجب الواجبات في تلمس طريق الشفاء والعلاج ليتمكن الإنسان من علاج المشكلة من جذورها واجتثاث أسبابها القريبة والبعيدة يقول: «إن كل ألم غير معروف الأسباب غير موجود الشفاء. فينبغي أن نبين ما الحزن وما أسبابه، لتكون أشفيته ظاهرة الوجود، سهلة الاستعمال»⁹.

فالكندي حريص على أن تكون وصاياه الفلسفية العقلية والأخلاقية سهلة ميسورة مقدورا عليها حتى تكون حصادا سهلا لكل طالب مكابد يقول: "ومن أدوية ذلك السهلة".¹⁰

يقسم الكندي الحزن إلى نوعين من حيث الأسباب الداعية إليه، فالنوع الأول هو ما يكون أمره راجعا إلينا وبيدنا، والنوع الثاني هو ما يكون أمره خارجا عن إرادتنا ولا علاقة لنا به. فأما النوع الأول فأمره إلى الإنسان بتفادي فعل ما يؤدي إلى الحزن والشقاء، حتى يكون من زمرة السخفاء السذج المعتوهين، وأما النوع الثاني فيقسمه بدوره إلى قسمين: أولهما ما يكون دفعه إلينا وداخل تحت طاقتنا وقدرتنا، وهذا أمره سهل ميسور؛ إذ العقل يوجب علينا دفع أسباب الحزن والغم والثاني ما كان دفعه ودفع أسبابه خارج إرادتنا ومجال تصرّفنا، فإنّه يتوجّب علينا أن لا نحزن قبل وقوع المكروه المحزن لئلا نضرّ بأنفسنا يقول الكندي: "...وإن كان المحزن لنا فعل غيرنا فلا يخلو أن يكون دفعه إلينا، أو لا يكون ذلك إلينا، فينبغي أن ندفعه ولا نحزن؛ وإن كان دفعه ليس إلينا فلا ينبغي أن نحزن قبل وقوع المحزن،.... فإن حزنا قبل وقوع المحزن كنا قد أكسبنا أنفسنا حزنا لعلّه غير واقع بامسك المحزن عن الأحزان أو لدفع الذي إليه دفعه عتّا، فكنا أكسبنا أنفسنا حزنا لم يكسبناه غيرنا. ومن أحزن نفسه فقد أضّر بها، ومن أضّر بنفسه فجاهل فظ جائر في غاية الجور...".¹¹ ينظر الكندي ويقبح من يستبق الأشياء قبل حدوثها فيضيف إلى نفسه أحزانا مضاعفة عساها ألا تقع، أو تقع متأخرة فيكون قد تمّ التقليل من أمدّها. فمن العيب على الإنسان أن يستعجل الحزن قبل أوانه، ولا يحق للإنسان العاقل جلب الشّرّ إلى نفسه والتسبب فيه يتوجّب دفعه بما أمكن، أو على الأقلّ التقليل منه وتقليص زمنه ما دام أن لكل شيء أمدا محدودا يقول الكندي: «فإن كان في الطّبع



دثور الحزن- إذ كل ما تحت الكون فزائل غير دائم في جزئيات الأشياء- فينبغي أن نجتهد في الحيلة للتلطّف لتقصير مدّة الحزن. فإنّا إن قصّرنا في ذلك كنّا مقصّرين في مهمّة دفع البلاء الذي يمكننا دفعه.¹²

خامساً: الاعتقاد - من فلسفة دفع الحزن وعلاجه - أن كل شيء زائل والحزن شيء فهو زائل، ولكل شيء مدّة محدودة ومقدار مؤقت لا يمكن أن نجعله يجاوزه ويستمر في الزّمان للقول السابق للكندي.

سادساً: دفع البلاء عن الإنسان عن جسده ونفسه، من مهمات الإنسان الوجودية، ومن أوجب واجبات نفسه عليه، ولا يحقّ له التنصّل أو التهاون ولا التقاعس عن بذل الغالي والتّفيس لتخليص نفسه ممّا يضّرّ بها، وإلاّ اعتبر مقصّراً في وقاية وعلاج نفسه، فالتقصير في الأمر ههنا من سمات الحمقى والجهّال والأشقياء والجائرين وأساء الجور هو الجور على التّفس.¹³

سابعاً: ألاّ يرضى الإنسان لنفسه الدّنيّة وهو يقدر على نيل السّعادة والشّرف ومتعة الحياة وبهجتها، فكيف يقبل على نفسه الدّنيّة والشّقاء ولا يحاول دفعهما عن نفسه وهو قادر مستطيع يقول الكندي: "وأشقى الأشقياء من لم يجتهد في دفع البلاء عن نفسه بما دفعه. وينبغي أن لا نرضى بأن نكون أشقياء ونحن نقدر على أن نكون سعداء."¹⁴

ثامناً: السّلوة بما قد فات من تجاوز للمآسي، فالذاكرة سلاح الماضي يعين على تسهيل أزمت الحاضر؛ إذ المحزون محتاج إلى نوع من المواساة والسّلوى ليتجاوز بمعونتهما آلامه وأحزانه، ولهذا يواسي الناس بعضهم بعضاً إذا ما ألّمت بأحدهم مصيبة مما يحزن له، فبالمواساة يتذكّر سواف الأحران، سواء أكانت ذاتية أم غيريّة، تمدّ الإنسان المحزون بقوة عظيمة يتسلّح ويتقوّى بها لمجابهة ألم الفقد والحزن، يقول الكندي: "ومن لطيف الحيلة في ذلك تذكّر محزنانا التي سلونا عنها قديما ومحزنانا غيرنا التي شاهدنا حزنهم بها وسلوتهم عنها؛ وتمثيلا في حال المحزن محزنا بالسالفات من محزنانا"¹⁵. كالعزاء الذي عزّى به الإسكندر بن فيلفوس المقدوني والدته عند حضور موته¹⁶. ينصح الكندي بالاستعانة بمخزون الدّذاكرة للإفادة من خبرات الدّات وخبرات الغير لتجاوز المآسي، ويكفي الإنسان أن يتذكّر أنّ الأحران أعدل الأشياء قسمة بين النّاس فلا مهرب لأحد منها لعموم أسبابها، فلست بيدّع أيها المحزون، ومن السّلوى بالغير أن يتذكّر الحزنان أن كل ما فاته ولم يدركه قد فات كثيرين قبله، وسيفوت آخرين بعده؛ إذ البلاء عامّ، وخصوصا في المادّيات من القنيات التي من خصائصها الرّوال والفناء، وأنها لا يختصّ بها أحد ولا تسلم لمخلوق، فمن العار أن يحزن الإنسان ومن طبيعتها الفقد والرّوال وتحوّل وتستحيل وتغصب..... فلك أيها الإنسان مثل وأسوة في الآخرين فالجميع لاشكّ قد فوّت وفقد شيئا محبوبا ومع ذلك قنع ورضي وتجاوز، وتراه مبتهجا مسرورا يقول: "وأن نتذكّر أن كل شيء فائنا أو فقدنا. فقد فات خلقا كثيرا وفقده خلق كثير، كلهم قنع بفوته وفقدانه وهو ظاهر البهج بعيد الحزن."¹⁷

-تاسعا: عدم مصادمة قوانين الكون إذ أن ذلك من الجهل والشقاء الذي يجلبه المرء على نفسه، وهو ما يتوجّب أن يتحرّز ويتبرّأ منه ذو العقل السّليم، وهذا القانون يقضي بأنّا ما دمنا قد وجدنا في هذا العالم على ما نحن عليه، فإنه ليس بالإمكان غير هذا، وكل من أراد حياة في هذا العالم خالية سالمة من المصيبات والأحزان فقد أراد، ممتنعا وأراد ألاّ يوجد أصلا يقول الكندي: "إنّا إن أردنا ألاّ نصاب بمصيبة فقد أردنا ألاّ نكون البتّة"¹⁸. فكل من أراد عالما مثاليا خاليا من الأحزان والمصائب فإنما يطلب محالا، ويخالف ما الطّبع ومن أراد هذا فقد أراد الممتنع وطلب المحال ما دمنا في عالم الكون والفساد.

عاشرا: معرفة موجبات الحزن فالأشياء في نظر الكندي ليست سواء والخلط بينها يجعل الإنسان يحزن على ما لا يستحق التألّم لأجل فقده وفوته.

يقسم الكندي الأشياء إلى قسمين: أولا: قنيات مادية وهذه زائلة متحوّلة وهي ليست ملكا حقيقيا لصاحبها، وإنما هي له على سبيل المجاورة والإعارة لأنها مشتركة بين جميع النّاس وليس أحد من البشر أحقّ بها من الآخرين فهي لمن غلب، يقول الكندي: "وينبغي



أن يكون منا على بال أن جميع الأشياء التي تصل إليها الأيدي مشتركة لجميع الناس، وإنما هي مجاورة لنا لسنا أحقّ بها من غيرنا، وأن الغالب عليها هي له ما غلب عليها ". فهاته المملوكات الحسية بقاؤها رهين بالغلبة والتّمكّن، وهذا مستحيل في حق كل إنسان، وغير ممكن لإنسان في كل وقت في هذا العالم وهي مما لا يحق للعقل الحكيم الحزن عليه والتألم لفقدته إذ هي من الحسيّات الزائلة الدائرة المستحيلة.

ثانياً: القنيت النفسية وهذه هي التي يحق للعقل أن يحزن عليها ويتألم، ومن خصائصها الثبات والديمومة وهي مما لا يشترك فيها مع صاحبها أحد ولا يغلبه عليها غالب، فهي ما يملكه الإنسان على الحقيقة يقول الكندي: "وأما الأشياء التي هي لنا وغير مشاركة لغيرنا فهي التي لا تصل إليها الأيدي ولا يملكها علينا غيرنا، والتي هي قنية أنفسنا من الخيرات النفسانية فهذه هي التي لنا العذر في الحزن عليها إن فقدناها من أنفسنا¹⁹". يبدو واضحاً أن الممتلكات العقلية الحقيقية هي التي تستحق الحزن لفقدائها، فهي الزاد الحقيقي للإنسان وما يبقى له بعد مفارقة النفس للبدن وهي التي ينال بسببها السعادة والشرف والرفعة واللذة العظمى التي تفوق كل لذة.

عاشراً: ضرورة التقليل من القنينة إذ فقدتها وعدمها سبب للآلام والأسقام وسبب للأحزان والحزن شر ضارّ ومؤلم. فقد حكى عن سقراط أنه سئل: "ما بالك لا تحزن؟ فأجاب: لأنني لا أقتني ما إذا فقدته حزنت عليه". فالتقليل من القنينة المادية -إلا لضرورة العيش- يقلّل الأسقام النفسية والأحزان يقول الكندي: "فلذلك نقول من أحبّ أن تقلّ مصائبه، فليقلّ قنيتة²⁰". فآفة الإنسان التعلّق بالحسيّات والإكثار من القنينة التي لا يحتاج إليها يقول في ذم ذلك: "..... أراد أن يقتني أشياء كثيرة لا حاجة له إليها في إقامة ذاته وصلاح عيشه من تكوين الأطعمة والمناظر من الحيوانات وغير الحيوانات والتنقيش لمشاهداته وتزويقها. وكذلك مسموعاته ومشموماته.... فإن جميعاً كاسبات الهمّ في طلبها والألم لفقدائها والحسرات على فوتها. فإن مع كل مفقود من المراتد مصيبة، ومع كل فائت حسرة وأسف، ومع ترقب كل معدوم حزن وقلق وبعد كل أمن خوف لأن الخائف مشغول مزعج المعقول²¹". ويضيف في نص آخر بيان شقاء وتعاسة من انشغل بالحسيّات فيقول: "من شغلته نفسه بتزييد الخارجات عنه. عدم حياته الدائمة. وتكدّر عيشه في حياته الزائلة وكثرت أسقامه، ولم تتصرّم آلامه²²". فبهذا يضيّع اللاهث وراء الحسيّات حياته في هذا العالم كما يفوّت على نفسه الحياة بعد في عالم العقل والديمومة.

إحدى عشر: عدم كره ما ليس برديء، يظن الناس أن الموت رديء سيء بسبب جهلهم به، ولهذا يقرّر الكندي أن الموت في حدّ ذاته ليس برديء بل الخوف منه هو الرديء؛ لأنه يجزّ على صاحبه ويلاّت وهموما لا حدّ لها. أما الموت فهو تمام طباع الإنسان وكمالها؛ إذ لا حياة بلا موت ولا إنسان بلا موت، فالإنسان محدود بأنه الكائن الحي الناطق المائت، يربط الكندي بين الجهل بحقيقة الموت وبين الحزن الذي يجلبه هذا الجهل فيجعله رديئاً ومكروها يقول الكندي: "فإنه لا يظنّ أن شيئاً أردأ من الموت، والموت ليس برديء. إنما خوف الموت رديء. فأما الموت فإنما هو تمام طباعنا: فإن لم يكن موت لم يكن إنسان بتّة، لأن حدّ الإنسان هو أنّه ناطق مائت. فإن لم يكن موت لم يكن إنسان، لأنه إن لم يكن ميتاً فليس بإنسان. فإذا لم يكن برديء أن نكون ما نحن وإنما الرديء أن لا نكون ما نحن. فإن الرديء أن لا يكون موت، لأنه إن لم يكن، لم يكن إنسان. فإذا لم يكن رديئاً²³".

يقرّر الكندي أنه:

-لا يجب كره ما ليس شرّاً ولا رديئاً.

-الموت ليس برديء بل الخوف منه هو الشرّ الرديء.

-الجهل بحال الحياة والموت هو سبب كره الموت



يتبين من نص الكندي انه إذا كان أردأ وأسوأ ما في ظنون الناس رديفاً، وقد تبين بالعقل أنه ليس برديء أبداً، فكل ما دونه ليس أيضاً برديء وليس شراً، وما سبب كل هذا سوى جهل الناس بحال الحياة والموت وحقيقتهما. فبالموت ينتقل الإنسان إلى عالم العقليات الذي لا آلام فيه ولا أوجاع، عالم الخيرات حيث الصفاء والطهارة يقول الكندي: " وكذلك هو في هذا المحلّ الذي هو الدّنيا شديد الجزع على فراقه. فإذا صار إلى المحلّ العقلي العادم للآلام الحسية والفنيات الحسيّة التي هي تتابع كل الآلام الحسية والنفسية، وفيه الخيرات التي لا تنال قنيتها الأيدي والآفات".²⁴

وقد أخطأت الأنفس التي خافت الموت وجعلت منه شيئاً مكروهاً لتعلّقها بالحسيّات والأشياء الدنيائية يقول في هذا الصّدّد: "قد تبين إذا كيف غلّطت الأنفس-الضعيفة التمييز المائلة بالحسّ- في الموت وظنّته مكروهاً، وهو ليس بمكروه فإذاً عدم جميع الأشياء التي دون الحياة الدنيائية من الفنيات الحسيّة ليس برديء بل الحزن عليها رديء، لأنها آلام ندخلها على أنفسنا، ليست باضطرابية فنحن إذن، إذا كنّا كذلك رديءو الطّبع، رديءو العيش. فإن من رضي بذلك رديء الاختيار عادم عقله، لأن العقل يضع الأشياء مواضعها. فأما عدم العقل فيضع الأشياء غير مواضعها ويظنّها بخلاف ما هي"²⁵. فالموت كمال وتمام طباع الإنسان بعد أن انصقلت نفسه وتم من علائق المادّة والشهوات فصارت مستأهلة للانتقال إلى العالم العقلي حيث عالم الديمومة يقول الكندي: " وإذا تجردت وفارقت هذا البدن وصارت في عالم العقل فوق الفلك صارت في نور الباري، ورأت الباري عز وجل وطابقت نوره وجلت في ملكوته فانكشف لها علم كل شيء وصارت الأشياء كلها بارزه لها، كمثّل ما هي بارزه للباري عز وجل؛ لأن إذا كنّا، ونحن في هذا العالم الدنس قد نرى فيه أشياء كثيره بضوء الشمس، فكيف إذا تجردت نفوسنا، وصارت مطابقة لعالم الديمومة، وصارت تنظر بنور الباري فهي لا محاله ترى بنور الباري كل ظاهر وخفي، وتقف على كل سر وعلائية"²⁶.



على سبيل الختم:

في الختام وبناء على ما ذكر آنفاً يتبدى جلياً للدارس مدى عمق وأصالة وقابلية وصايا الكندي لتحسين حياة الإنسان، إذ وضع مبضع الجراح الخبير على مكان الداء، مقدماً خلاصة قراءاته وتحليلاته، وموظفاً فكره التربوي والفلسفي والديني ليقدم للإنسان المكابد الترياق الناجع لإحدى أهم مشكلات الإنسانية الأبدية الأزلية، موجزاً أهم الأشقية التي يراها مناسبة لتخليّة الحياة من الهم والغم، بالفرح والبهجة والسرور ولعل أهم علاجاته كامنة في وجوب التوجّه نحو الأمور التي نتحكّم فيها وتقبّل الأمور والرضى بالأشياء نظرة إيجابية متفائلة للموت، كأهم مخيف للإنسانية باعتباره مجرد مرحلة وفنطرة عبور من عالم الحياة البدنية إلى عالم حياة العقل والديمومة حيث لا نصب ولا تعب، وحيث المتعة الكبرى واللذة العظمى، بالإضافة إلى نصح الإنسان بالتقليل من القنيت المادية التي هي أكبر عائق أمام بلوغ الإنسان كمالاته النفسية وارتقاءه في المدارج العقلية التي لا يشركه فيها أحد وهي الملك الحقيقي له، فكلماً أقل الإنسان التعلّق بالقنيت الحسية، كلّما ضمن البهجة والسرور في حياته. لقد أظهر الكندي كيف يمكن للعقل أن يكون أداة قوية وفعّالة في مجابهة الحزن والابتعاد عن الألم النفسي، وفي الأخير لا يسعنا سوى الإشادة بمجهود فيلسوف العرب وانهمامه بمحاولة مشكلات عصره والإنسانية جمعاء بذهن ثاقب وبصيرة نافذة، استطاع تقديم تعاليم تفيد في تحسين نوعية حياة الإنسان، وتعزيزه قدرته على التأقلم مع الواقع المتغيّر، مما يقي فلسفته مرجعاً هاماً لا غناء عنه لكل ساع لتحقيق السعادة والراحة النفسية وطرد الحزن والهمّ والغمّ.



الهوامش:

- ¹ الكندي أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، رسالة في الحيلة لدفع الأحزان ضمن رسائل فلسفية للكندي والفارابي وابن باجه، وابن عدي تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي، منشورات الجامعة الليبية، بنغازي، 1973، ص 6
- ² الكندي أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق وتقديم. محمد عبد الهادي أبو ريده، دار الفكر العربي، مصر، 1950، ج 1 ص 279
- ³ المصدر السابق، ج 1، ص 264
- ⁴ مصدر سابق، في الحيلة لدفع الأحزان ص 6-7
- ⁵ رسالة في الحيلة لدفع الأحزان ص 7
- ⁶ المصدر السابق ص 7-8
- ⁷ المصدر السابق ص 9
- ⁸ في الحيلة لدفع الأحزان ص 11
- ⁹ في الحيلة لدفع الأحزان ص 6
- ¹⁰ المصدر السابق ص 12
- ¹¹ المصدر السابق ص 12-13
- ¹² المصدر السابق ص 13-14
- ¹³ المصدر السابق والنص السابق ص 13-14
- ¹⁴ في الحيلة لدفع الأحزان، ص 14
- ¹⁵ المصدر السابق ص 14
- ¹⁶ المصدر السابق ص 14
- ¹⁷ المصدر السابق ص 15
- ¹⁸ المصدر السابق الصفحة 16
- ¹⁹ المصدر السابق الصفحة 16
- ²⁰ المصدر السابق ص 21
- ²¹ المصدر السابق ص 22-23
- ²² المصدر السابق ص 23
- ²³ المصدر السابق الصفحة 28
- ²⁴ المصدر السابق الصفحة 29
- ²⁵ المصدر السابق الصفحة 30
- ²⁶ أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي، الرسائل الفلسفية، حققها وأخرجها محمد عبد الهادي أبو ريده، دار الفكر العربي مصر، الجزء الأول ص 276